صحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام

بقلم حبيب زيات *

٩ ــ الرقوق

جمع رَقّ ويستدل من لفظها انها كانت جلوداً رقاقاً قيل لورّاق ما تشتهي ؟ قال : قلماً مشّاقاً وحبراً براقاً وجلوداً رقاقاً[١] . وكان منها نوع في غاية الرقة والنعومة لا يكاد يفرق من الورق شيء. وصفه المسعودي بقوله : رأيت بمدينة اصطخر من ارض فارس في سنة ٣٠٣ (٩١٥ م) عند بعض اهل البيوتات المشرّفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم واخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم ... مصور فيه ملوك فارس من آل ساسان ... وكان تاريخ هذا الكتاب انه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١١ (٧٣١ م) ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من القادسية الى العربية . . . والورق فرفيري اللون عجيب الصنع فلا ادري أورق هو ام رق لحسنه واتقان صنعته[٢] وان لم يكن من ورق الصين العالي فلا محالة انه كان من الرق لان الورق السمرقندي لم يكن صُنع بعد في سنة ١١٣ للهجرة .

وفي الشعر القديم ذكر مستفيض للكتابة على الرق كقول طرفة :

كسطور الرق رقّشه بالضحى مرقش يشيمه[٣]

ولحسان بن ثابت :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي في الرق النشيب[٤]

ولحاتم الطائي :

أتعرف آثار الديار توهماً كخطك في رق كتاباً منمنما[٥]

١) ادب الكتاب للصولي ٥٥

٢) التنبيه والاشراف ١٠٦-١٠٧

٣) العقد الثمين ٢٢

٤) ديوانه طبعة ليدن ١٨

٥) الاغاني طبعة الدار ٨ : ٢٠٤

وللحارث بن خالد المخزومي :

هل تعرف الدار اضحت آيها عجما كالرق اجرى عليه حاذق قلما(١)

ومما كانت تختار كتابته خصوصاً في الرقوق كتب الامان والعُهَد التي كانت تعلق في اعناق الاحداث لصبرها على الدعك واللمس . قال ابن همام السلولي من قصيدة يخاطب ابن زياد :

فقد خُطَّ لي الرق فيه الامـا نُ اليك مخافة أبانـك (٢

وفي الاغاني : ان ام ذي الرمة جاءت الى الحصين بن عبدة بن نعيم العدوي وهو يقرئ الاعراب بالبادية احتساباً بما يقيم لهم صلاتهم فقالت له : يا ابا الخليل ان ابني هذا يُروَّع بالليل فاكتب لي معاذة اعلقها على عنقه فقال لها : ابتغي برق اكتب فيه فقالت : فان لم يكن فهل يستقيم في غير رق ان يكتب له . قال : فجئني بجلد وأتته بقطعة جلد غليظة فكتب له معاذة فيه(٣) .

وكانوا يؤثرون كتابة القرآن في الرقوق(٤) اجلالاً له ويختارون للغاية نفسها تدوين الحديث في الرق وبالحبر دون الورق والمداد . وفي تاريخ بغداد : ان المعتز بعث الى القاضي احمد بن بديل الكرخي واراد ان يسمع منه احاديث قال فاخذ الكاتب القرطاس والمداد فقلت له : أتكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قرطاس بغداد قال : فبمَ تكتب قلت : في رق بحبر فجاؤوا برق وحبر(٥) . واستثنى البطليوسي بعض انواع الحبر فقال : يختار ان لا يكتب في الجلود والرق بالحبر المثلث فانه قليل اللبث فيها سريع الزوال عنها وان يكتب فيها بالحبر المطبوخ وفي الرق بما احب(٦) .

وروى البشاري المقدسي ان اهل المغرب كل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة

١) الاغاني ٣ : ٢٢٨

٢) انساب الاشراف للبلاذري ٦ : ٨

٣) الاغاني طبعة بولاق ١٦ : ١١

٤) صبح الاعشى ٣ : ٤٧٦

٥) تاريخ بغداد للخطيب خزانة باريس ٢١٢٨ ص ٩٠

٦) الاقتضاب في شرح ادب الكتاب ٦٧–٦٨

في رقوق[1] ولذلك لما تبين للاخشيد امير مصر خطأه بقبول المسير الى بغداد بين يدي المتقي لله وخدمته اياه واراد استدراك هذا الخطأ قال احمد بن عبدالله الفرغاني: فدعوت رجلاً من المغاربة له اخ بالمغرب فقلت له: خذ رقًا واكتب فيه كتاباً من اخيك وقل فيه: « لما اتصل بامير المؤمنين القائم بامر الله (الفاطمي) مسير الاخشيد الى المتقي جهز العساكر في البر والبحر الى مصر واغتنم خلوها ». واذا كتبت الكتاب فمزّقه وادعكهُ حتى يصير كانه قديم ... ثم حمله (الاخشيد) الى المتقي وقرأه عليه ... فقال له: سِر ولا تتأخر[2].

وغلب على الدواوين السلطانية في الاندلس الكتابة في جياد الرقوق بأجل الاقلام. ومن فعل الوزير ابي حفص بن برد الاكبر من رقعة كتبها عن المظفر بن عامر: « ان ورد لاحد من الخدمة بعد وصول ذلك العهد اليه كتاب اعتراض او تحمل في رق ردي او بمواد دني او خط خفي فيه لحن ... ليطلنّ سعي كاتبه في ما يكتب وليعاجلنّ بعقوبة العزل ». وكتب ايضاً: « ان قوماً من خدمة الخبرة قد عادوا الى ما نهوا عنه فكتبوا الخط الدقيق في دني الرقيق دقة من همتهم ودناءة في اختيارهم »[3].

وربما أعوزهم الرق النقي فيعمدون الى القديم منه او المكتوب فيقشرون وجهه ويسمونه « مبشوراً » ويعتذرون عن الكتابة فيه. ولما ولي المستظهر بالله ابو المطرّف عبدالرحمن بن هشام الناصري سنة ٤١٤ (١٠٢٣ م) رفع اليه شاعر ممن هنأه بالخلافة يوم بيعته شعراً له كتبه في رق مبشور واعتذر عن ذلك بهذين البيتين:

الرق مبشور وفيه بشارة ببقا الامام الفاضل المستظهر
ملك اعاد العيش غضاً شخصه وكذا يكون به طوال الادهر

فاجزل المستظهر بالله صلته ووقّع له على ظهر رقعته بابيات منها:

قبلنا العذر في بشر الكتاب لما احكمت من فصل الخطاب
وجدنا بالجزاء بما ندينا على قدر الوجود بلا حساب[4]

---

١) احسن التقاسيم ٢٣٩.
٢) المُغرب في حلى المَغرب لابن سعيد ٢ : ٤١
٣) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام ١ : ٨٧
٤) الذخيرة لابن بسام ١ : ٤٤

ولكن هذا التفاؤل بالبشر والبشارة لم يعصم المستظهر من القتل والموت في السنة نفسها.

وكان في قرطبة رَبَض يدعى « ربض الرقاقين » تباع فيه الرقوق بالقرب من باب العطارين وعرفت اشبيلية بصناعة الرقوق وفي كتاب الحسبة لابن عبدون « يجب ان لا تبسط الاقذار على اقبتها مثل جلود الدباغين والرقاقين » وان لا يعمل الرق الا مبشوراً ولا يصنع الا من الضان المهزول »[1] يريد بالبشر ان تقشر البشرة التي ينبت عليها الشعر.

ولما احرق ابن عباد كتب ابن حزم قال ابن حزم يصف ما أحرق له من رق وقرطاس وكاغد :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... ويترل ان انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد ... وقولوا بملء في يرى الناس من يدري
والا تجودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون فله من ستر [2]

ومن اغرب الحيل التي لجأ اليها احياناً بعض الخطباء في المشرق والمغرب كتابة خطبهم في رق بخط جليل والصاقه في الحائط بحيث يستعينون بقراءته قريباً منهم لئلا تخونهم الذاكرة فينقطعوا ويفتضحوا وهو ما حكاه احد موالي بني امية وكان ذا علم باخبارهم القديمة والحديثة واخبار بلاد الاندلس. حدث عنه حرملة صاحب الشافعي قال :

« كنت قد نظرت يوماً في بعض جوامع بواديهم الى خطب مكتوبة بخط غليظ في رق ملصق في الحائط بجذاء المنبر الذي يخطب عليه فكان اذا قعد للخطبة نظر اليها فلم يدخل عليه سقط ولا تلعثم فتكلمت معه في ذلك وعبت عليهم وقلت لهم : انتم اهل المشرق المنسوب اليهم البلاغة والخطب على البديهة وتفتقرون الى مثل هذا ؟ ما رأيت مثل هذا في نواحي المغرب وهم اضعف الناس في البلاغة فما تقولون ؟ فقال لي : قد كان الطف من هذا عندكم وفي بيضة بلدكم وموضع سلطانكم. كان يحجبني ابي عن جدي انه كان عندكم

1) كتاب الحسبة لابن عبدون Journal Asiatique 1934 p. 217 et 250
2) ادب الكتاب للصولي ٥٠

بقرطبة قاضٍ في الزمان يسمى عنترة من قلاح وكان تقيا ورعا استسقى يوما بالناس فاحسن في دعائه وقيامه بالخطبة فقام اليه رجل من عامة الناس فقال: ايها القاضي الواعظ قد حسنت ظاهرك فحسن الله باطنك فقال له: آمين لنا اجمعين فهل اخبرت شيئاً يا ابن اخي فقال له: نعم بتفريغ اهرائك يكمل استسقاؤك فقال القاضي: اللهم اني أشهدك ان جميع ما حواه ملكي من المأكول صدقة لوجهك ثم تأنى ان لا يريم مقامه حتى يقصد داره ويفرق جميع ما ادخر قال فأغيثوا من يومهم غيثاً عاماً. قال لي وكان هذا القاضي عنترة يقول: متى لحظت الناس لم اجد كلاماً فكان اذا خطب سدل على وجهه من ثوبه فكان يذكر عنه ان معناه غير ذلك وان خطبته كانت مكتوبة في صحيفة مشبكة في الثوب المسدول على وجهه فهذا من نحو ما رأيت عندنا وهذه الخطب لها آلات واستجماع[1].

والرقوق اذا تداولتها الايدي قعقعة كان يضرب بها المثل قال البشاري المقدسي في كلامه على اصحاب الكهف: على كل رجل منهم جبة. وكساء اغبر يتقعقع كما يتقعقع الرق[2]. وهذه القعقعة هي التي كانت سبباً لسقوط زينب اخت الحجاج بن يوسف ومقتلها وكان لما خرج ابن الاشعث وجه بها مع حرمه الى الشام خوفاً عليهن «فلما قتل ابن الاشعث كتب الى عبد الملك بن مروان بالفتح وكتب مع الرسول كتاباً الى زينب يخبرها الخبر فاعطاها الكتاب وهي راكبة على بغلة في هودج فنشرته تقرأه وسمعت البغلة قعقعة الكتاب فنفرت وسقطت زينب فدق عنقها وتهرّى جوفها فماتت»[3].

وفي دار الكتب في القاهرة امثلة نفيسة من الجلود والرقوق المكتوبة. وفي الخزانة الظاهرية بدمشق صحف من الرق منتزعة من كتب عربية قديمة جُلدت بها اجزاء في الحديث وبعض العلوم.

١٠ ــ الطروس

قال ابن سيدة: الطرس الكتاب الذي مُحي ثم كُتب والجمع اطراس

---

١) كتاب القضاة بقرطبة لابي عبدالله محمد بن الحارث الخشني طبعة مدريد ص ٣٥-٣٦

٢) احسن التقاسيم ١٥٣

٣) الاغاني ٦ : ٣٦

وطروس . وقال الليث : الطرس الكتاب الممحو الذي يستطاع ان تعاد عليه الكتابة . وفي اللسان ايضاً : الطرس الصحيفة ويقال هي التي محيت ثم كتبت وكذلك الطلس[1] palimpseste .

وقد سبق انه لما كانت فتنة الامين نهبت الدواوين واخذ ما فيها من الجلود المكتوبة فمحيت او غسلت وكتب الناس فيها عدة سنين وفي كتب التراجم والتاريخ عدة اشارات الى من غسل كتبه اما تورعاً قبل موته واما في حياته لغرض من الاغراض واشتهر من الاولين سفيان الثوري يقال انه لما حضرته الوفاة غسل كتبه كلها خوفاً كما قال ابو العلاء :

والخوف ازم سفيا ن ان يفرّق كتبه[2]

وجاء في ترجمة المبارك بن ابي طالب الكوفي المتوفى سنة ١١٨٩/٥٨٥ انه كان « اوحد زمانه في حسن الخط وكان ضنيناً بخطه جداً فلذلك قل وجوده كان اذا اجتمع عنده شيء من تجويداته يستدعي طستاً ويغسله »[3] . وروي عن ابي الحسن علي بن عيسى النحوي الربعي ومات في بغداد سنة ١٠٢٩/٤٢٠ « ان احد بني رضوان التاجر نازعه في مسألة فقام مغضباً واخذ شرح سيبويه (من تصنيفه) وجلجله في إجانة وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم به الحيطان ويقول : لا اجعل اولاد البقالين نحاة »[4] .

ومما يجدر ذكره ان ابن الدهان الوجيه وكانت وفاته ببغداد سنة ١٢١٥/٦١٢ « حضر بدار الكتب التي برباط المأمونية وخازنها يومئذ ابو المعالي احمد بن هبة الله فجرى حديث المعري فذمّه الخازن وقال : كان عندي في الخزانة كتاب من تصنيفه غسلته فقال له الوجيه : واي شيء هذا الكتاب قال : كان كتاب نقض القرآن فقال له : اخطأت في غسله »[5] .

واذا صح ان الكتاب كان حقاً لابي العلاء ولا نعلم ان احداً نسبه اليه كانت هذه الحكاية من اولى الشواهد على ان نكبات العلم وضياع بعض ذخائره

١) لسان العرب ٧ : ٤٢٧–٤٢٨ وتاج العروس ٤ : ١٧٧

٢) اللزومات طبعة الهند ٤٤

٣) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ٢٨٤

٤) ارشاد الاريب ٦ : ٤٢٥

ونوادره لم تكن من جناية الدهر فقط وكساد الوراقة واهمال النساخ بل احياناً من تفريط الخُزّان المؤتمنين على حراسته وصيانة ودائعه وتركاته وربّ حارس مُحترَس منه .

ومن روايات ياقوت ايضاً : قال الشيم الحلي : عملت مقامات مرتين فلم ترضني فعملتها وما اعلم ان الله خلقني الا لأظهر فضل الحريري[1] .

١١ ـ البردي والبرديات

في مفردات ابن البيطار ان البردي كان يقال له الحلفا[2] ودعاه ايضاً الغافير بغائين وهو تعريب papyrus وكثيراً ما تعاقب الغاء الباء.[3] ونقل عن ابي العباس النباتي انه « موجود بصقلية معروف بها واهل البلاد يسمونه بِبِر ببائين معجمتين في المنطق بنقطة واحدة من اسفلها بعدهما ياء باثنتين من اسفل ثم راء »[4] . ومن هذا الضبط يتضح غلط النساخ في طبعة ابن حوقل حيث ورد لفظ « البربير » بزيادة راء بين البائين بدلاً من البير قال في كلامه على مدينة بلرم في صقلية : « في خلال اراضي بلرم بقاع قد غلب عليها البربير المحمول منه الطوامير ولم اعلم لما يحمر من هذا البربير نظيراً بوجه الارض الا ما بصقلية منه واكثره يفتل حبالاً للمراكب واقله يعمل منه للسلطان طوامير لا تزيد على قدر كفايته »[5] .

وقد فات ابن حوقل ان البردي كان ينبت ايضاً في فارس وفي افريقية وبطائح السودان والحبشة قال الشيخ داود الانطاكي : « وينبت ايضاً بغوطة الشام وعندنا مما يلي السويدية[6] . وكان معروفاً ايضاً في ديار العرب شبهوا المرأة المتصفة بالشطاط وحسن القامة بأباذة البردي اي قصبته فقال احد الشعراء :

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ١٢٢

٢) في الاصل المطبوع غلطاً « الحفا » بايقاط اللام .

٣) وقد تصحف في الاصل المطبوع الغافر بالغافر بالذين بدلاً من الغاء .

٤) الكتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية، لضياء الدين عبدالله بن احمد المالقي المشاب المعروف بابن البيطار طبعة القاهرة ١ : ٣٥ و٨٦

٥) المسالك والممالك طبعة ليدن ٨٥ – ٨٦

٦) تذكرة اولي الالباب والجامع للعجب العجاب ١ : ٦٥

وحقة مسك من نساء لسنها شبابي وكأس باكرتني شمولها
جديدة سربال الشباب كأنما أبادة برديّ سفنها غيرلها (١)

وكان المصريون يعملون من البردي في ما عدا القراطيس اي صحف الكتابة حبالًا للمراكب وينسجون منه الحصر الغليظة المعروفة بالاكياب(٢) ولم ترد هذه اللفظة في مكانها من المعجمات واحسن وصف رأيناه للبردي والقرطاس المعمول منه ما رواه ابي البيطار عن ابي العباس النباتي قال: «هو نبات ينبت في الماء له ورق كخوص النخل وسوقه طوال مستديرة خضر في غلظ عصا الرمح القصير نحو القامة واكثر وهي خوّارة مفرّقة تتشظّى اذا رُضّت الى شظايا دقيقة وربما صلحت ان تصلح منها الارشية وفيها قوة وعلى اطرافها رؤوس مستديرة ضخمة كأنها رؤوس الثوم الكرّاثي الا انها اضخم عليها هدب ذهبي اللون مليح المنظر.

«وصفة عمل القرطاس عند المصريين في الزمان الاول كانوا يعمدون الى سوق النوع فيشقونها نصفين من اولها الى آخرها ويقطعونها قطعاً قطعاً وتوضع كل قطعة منها الى لصق صاحبتها على لوح من خشب املس ويأخذون ثم البشنين(٣) ويزجونه بالماء ويضعون تلك الازوجة على القطع ويتركونها حتى تجف جدًا ويضربونها ضرباً لطيفاً بقطعة خشب شبه الارزبّة فتصير في قوام الكاغد الصرف المتلى»(٤).

وقد اشار ابن الحشاء من رباط الفتح في كلامه على القرطاس المحرق الموصوف في الادوية الى صناعة البردي فقال: «كان يتخذ قديماً بديار مصر من صنف من البردي يُسمّى بها الغفير مع رطوبة نبات ينبت في الماء يسمى البشنين يتخذ الواحا على غلظ الكف وتجفّف وتستعمل في الطب. وقد ترك اليوم عمله مع وجود النباتين حتى لا يعرفه الا القليل سماعا لا مشاهدة»(٥).

وكان معوّل الدواوين السلطانية قبل ظهور الورق السمرقندي على الصحائف

---

١) الكامل للمبرد طبعة ليبسيك ٤١٤

٢) تذكرة اولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١: ٦٥

٣) البشنين نبات يقوم على ساق ولا ورق له ويسميه المصريون عرائس النيل (nymphea lotus)

٤) مفردات ابن البيطار ١: ٨٦–٨٧

٥) مفيد العلوم ومبيد الهموم طبعة سنة ١٩٤١ ص ١١٧

البرديات ومنها دفائن كثيرة في صعيد مصر واول ما اكتشف جانب منها سنة ١٨٢٤ في ضواحي مدينة منف القديمة بالقرب من هرم سقارة ودير مار ارميا عُثر منها على صحيفتين في باطن جرّة مختوم عليها وكانت عادة القوم في تلك الازمنة حفظ ما يشاؤون صيانته واستقاءه من البرديات والكتب في قوارير من زجاج او جباب من فخار رفقاً بها لسرعة تكسرها وتهرّئها بتداول الايدي لها . وفي تاريخ ٩ يونيو — حزيران سنة ١٩٤٩ رويت الجرائد ان بعض الفلاحين لقوا في مغارة بالقرب من نجع حمادة على بعد ٥٠ كيلومترًا شمالي الاقصر خابية كبيرة أُودع فيها اثنا عشر مجلدًا بالقبطية لم يبرح جلدها سليماً وفيها عهود دينية عديدة من القرن الثالث بعد الميلاد .

وبقيت عادة حفظ البرديات في الجرار متبعة الى القرن الثالث للهجرة كما يستفاد من رواية ابن خلكان في ترجمة يحيى بن معين بن عبد الرحمن المري البغدادي المتوفى سنة ٢٣٣ / ٨٤٧ قال : « خلف من الكتب مائة قمطر واربع جباب شرابية مملوءة كتبا . »[1] وفي تاريخ بغداد للخطيب انه خلف ثلاثين قمطرًا وعشرين جبًا[2] . وكان من شاء سلامة كتبه من الفساد يصونها في الفخار ويظهر ان محمد بن اسحق فعل كذلك بنسخة له من كتاب السيرة صنفه لسلمة ابن الفضل قال ابو الهيثم صنف محمد بن اسحق كتاب السيرة في القراطيس فكانت تُفضل رواية سلمة على رواية غيره لحال تلك القراطيس »[3] .

وبعد نحو نصف قرن من الاكتشاف الاول عقبه اكتشافات اخرى في الفيوم والاشمونين واهناس وبهنسا واخميم واشقاو وادفو بلغت الآلاف من الصحف والرقاع والرسائل والشروط والعقود والحجج والبراءات والصكوك الديوانية والكتابات الخاصة والعامة وفيها من الاخبار والفوائد واوصاف الحياة والمجتمع منذ الفتح ما تتجلى فيه مرآة تلك العصور ويعد اصدق شاهد بما كان يجري فيها من سياسة وولاية وتدبير وجباية ورسوم وظلامات وصناعة وتجارة وتصرف بالسفن والمراكب وتعريف اثمان الرباع والعقارات واجور المزارع

١) وفيات الاعيان ٦ : ٢١٩
٢) تاريخ بغداد ١٤ : ١٨٣
٣) تاريخ بغداد ١ : ٢٢

وتقلب اسعار الارض والاغذية والمآكل واختلاف قيم النقود من ذهب وفضة وعلم جرا من الاحوال والشؤون العمرانية التي تدرجت اليها الحضارة العربية بعد اختلاطها بالروم والقبط .

ومثل هذه الذخائر والكنوز يستطيع المؤرخ اليوم ان يستدرك ما فات المتقدمين علمه من حقيقة الحوادث والاخبار السالفة او ما لم يتهيأ لهم وصفه على وجهه الصحيح من تاريخ العصور الاولى. واقدم اثر من هذه الآثار الصادقة مدوَّن في سنة ٢٢ للهجرة اي سنة ٦٤٢ — ٦٤٣ للميلاد وفيها ما هو متأخر يرجع الى ختام القرن الثامن وهي محفوظة اليوم في الخزائن الاوربية وقسم منها في دار الكتب المصرية وما كادت تشتهر مزيتها حتى اقبل العلماء على دراستها وفك ما اعتاص منها وانفتح لهم في مطالعتها ابواب جديدة للنقد والاستدراك والتصحيح لم تكن في الحسبان وتولد منها علم جديد دعوه علم البرديات papyrologie وبعض هذه البرديات مكتوب باللغتين العربية والرومية وبعضها بالقبطية وبلغ ما اقتناه الارشيدوق رينياي (Régnier) من مكتشفات الفيوم ١٢٫٥٠٠ رقمة بين صحائف واوراق منها عشرة آلاف بالعربية وخمس مئة بالقبطية .

ووجد في ادفو بين الجزائر والدشت كتاب واحد مخروم قليلاً مجلد برق ملفوف في خرقة من الكتان عنوانه « الجامع في الحديث » لابي محمد عبد الله ابن وهب بن مسلم القرشي المصري (ولد سنة ١٢٥ للهجرة (٧٤٢ — ٧٤٣ م) وتوفي سنة ١٩٧ (٨١٢ — ٨١٣ م) وعدد صفحاته ٨٧ . طبعه وعلق عليه المستشرق Y. David Weil في مجموع منشورات المعهد الاثري في القاهرة .

ويتضح من النظر في البرديات المكتشفة انها كان منها اجناس مختلفة تتباين في الرقة والصفاقة والجودة والقطع واللون ومنها ما هو خشن يصاح للحصر وما هو غليظ صلب كالورق المقوى وما هو احمر ولكن البياض هو الغالب وبه اشتهرت القراطيس المصرية ولذلك صح لاحد الشعراء قوله في الهجاء :

ثياب طباخه اذا اتسخت انقى بياضاً من القراطيس(١

١) النهاية في التعريض والكتابة للثعالبي ٢٩

ولابي نواس في تشبيه الناقة :

واحتازها لون جرى في جلدها يفق كقرطاس الوليد هجان(١

١٢ ــ القرطاس

اضطرب كلام القوم في تفسير لفظ القرطاس الذي كان يطلق على صحف البردي وهو من الرومية (Χάρτης) تكلموا به قديماً وجاء في القرآن (ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس) فقال اللسان : القرطاس الكاغد يتخذ من بردي يكون بمصر . ثم اطلقه على الصحيفة من اي شيء كانت[٢] ونقل القلقشندي ان القرطاس والصحيفة بمعنى واحد وهو الكاغد وان كل كاغد قرطاس[٣] وهو تفسير مولّد تتوسى فيه الاصل لان الكاغد من القنب والكتان . والقرطاس من قصب البردي ولذلك قال ابن البيطار : متى قيل في الطب « قرطاس محرق » فيراد به القرطاس الذي يكون من البردي[٤]. ومن ثم لا بد للناظر في كتابات المتقدمين من التمييز بين معاني القرطاس في عصوره المختلفة فكل ما جاء منه قبل الهجرة وبعد الخلافة الاموية الى شطر من الخلافة العباسية في القرن الثالث انما يُقصد به صحف البردي وبه يجب ان يفسر قول طرفة في معلقته يصف ناقته :

وخدٍ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت اليماني قدّه لم يحرّد

ثم لما ظهر الورق السمرقندي وعم استعماله وانقطع بسببه عمل الورق البردي تحول لفظ القرطاس الى معنى الكاغد والقبست الكلمتان .

وربما قيل : قرطس بحذف الالف كما في بيت للبحتري العقيلي في وصف رسوم دار شبيها بخط الزبور فقال :

كأن بحيث استودع الدار اهلها خطّ زبور من دواة وقرطس(٥

ويجمع على قراطس كما في قول احدهم :

---

١) ادب الكتاب للصولي ١٠٦

٢) لسان العرب ٨ : ٥٤ــ٥٥ والتاج ٦ : ٢١٥

٣) صبح الاعشى ٣ : ٤٧٤

٤) الكتاب الجامع لمفردات الادوية ١ : ٨٦

٥) تاج العروس ٦ : ٢١٥

حملت اليك عروس الثناء على هودج ما له من جبير
على هودج من قراطيس مصر يبين على الطي بين الحرير(١

واشتهر الرهبان بالكتابة على القراطيس فقال جرير :

كأن ديار الحي من قدم البلى قراطيس رهبان احالت سطورها(٢

وكان القرطاس يعمل في عدة مواضع قديمة من مصر لم يعرف منها الا الفار وافراجون — بالجيم وضبطها ياقوت بالحاء المهملة — والفسطاط وبورة التي ينسب اليها السمك البوري ووسيمة(٣ . في كتاب الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة لابن ظهير : « دقهلة وكورتها يعمل بها القرطاس الطومار الذي يحمل منه الى اقاصي بلاد الاسلام والكفر »(٤ ويؤخذ من بعض الروايات انه كان يعمل قديماً في الاسكندرية ايضاً(٥ .

وقد سبق من كلام ابن حوقل ان القراطيس البردية لم يكن يعمل منها بصقلية الا المقدار الذي كان يحتاج اليه السلطان فكانت مصر معدنها الوحيد في الشرق ومنه كان يستمد اهل الغرب مؤونتهم الى اوائل القرن الثاني عشر الميلاد . ولما ابتدأ المعتصم بالله ببناء سامرا سنة ٢٢١/٨٣٧ « حمل اليها الناس من كل بلد وامرهم ان يعمروا عمارة بلدهم وحمل قوما من ارض مصر يعملون القراطيس فعملوها ولم تأت في تلك الجودة(٦ وزاد ابن الفقيه انه « حمل صناع القراطيس الى سر من رأى مع تربتها وماشها وامرهم باتخاذه هناك فلم يخرج منه الا الخشن الذي يتكسر »(٧ وهذا القول يعني ان المعتصم ادرك فائدة استنبات البردي في ارض سامرا لعمل القراطيس فامر بجلب ترابه وماشه وصناعه من مصر ولما صحت تجربته ونجحت سوقه اوعز الى صناعه الاقباط بتقطيعها والصاقها على الشكل الذي اعتادوه في مصر فلم تأت القراطيس

١) غاد القلوب في المذاق والمذوب للثعالبي ٤٢١
٢) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٥٢٧
٣) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي ١٢٦–١٢٧
٤) خزانة باريس ١٧٦٧ ص ٢٣
٥) *Dictionnaire Encyclopédique Quillet* p. 3406
٦) تاريخ اليعقوبي طبعة ليدن ٥٧٧ و٦٠٤
٧) كتاب البلدان طبعة ليدن ٢٥٣

منها في اللين الكافي وغلبت عليها الخشونة اما لجفاف هواء سامرا وقلة الرطوبة والبردي يجيء في مصر على ضفاف النيل واما لاسباب اخرى خافية . ويظهر ان الزراع لم ينقطعوا عن استنباته على علاته ولعلهم اتخذوا منه بدلاً من صحف الكتابة قراطيس للحرّ وهو ما يستفاد من النسب الى القراطيس وصناعتها في بغداد . قال السمعاني : القراطيسي نسبة الى عمل القراطيس وبيعها . والمشهور بها ابو عمرو وقيل ابو عثمان سعيد بن بحر القراطيسي والقاضي المحاملي مات في رمضان سنة ٣٤٣ . وابو ذرّ القاسم بن داود بن سليمان البغدادي القراطيسي . . وابو بكر محمد بن بشر بن مروان القراطيسي اصله من انطاكية سكن بغداد[1] ومن الشعراء الذين عرفوا بهذه النسبة اسحيل بن معمر القراطيسي . كان بيته مألفاً للشعراء كابي نواس وابي العتاهية ومسلم وطبقتهم .

وكان بالكرخ درب القراطيس ذكره الطبري والجاحظ وعمرو بن متى وماري بن سليمان وغيرهم قال الجنيد : «مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني[2] . وفي ربيع الاول سنة ٣٧١/٩٨١ وقع حريق بالكرخ من حد درب القراطيس الى بعض البزازين من الجانبين»[3] .

وفي الاساطير الاسلامية ان يوسف اول من عمل القراطيس واتخذها وكتب فيها[4] ولما جاء شابوليون المشهور الى مصر وجد بين اوراق البردي حسابات يرتقي تاريخها الى سنة ١٧٠٠ قبل المسيح[5] واول ذكر للقراطيس بعد الفتح كان في ايام عمرو بن العاص . قيل امر عمر بن الخطاب زيد بن ثابت «ان يكتب الناس على منازلهم وامره ان يكتب لهم صكاكاً من قراطيس ثم يختم اسافلها فكان اول من صكّ وختم اسفل الصكاك»[6] .

ولا يعلم متى بدأت زراعة البردي بالتناقص بمصر وتبعتها صناعة القراطيس بالاضمحلال بعد رواج الكاغد . ويظهر انه بقيت بقية من زراعته الى سنة

١) كتاب الانساب ٤٤٥
٢) وفيات الاعيان ١ : ١٤٧
٣) تاريخ الاسلام للذهبي خزانة بريتش موزيوم Add. 48 f° 15
٤) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٩٣
٥) *Dictionnaire Quillet* p. 3406
٦) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٧٧

١٤٠٠ للميلاد في بركة قارون في الفيوم وفي اعلى الصعيد . وكان لا يزال يعمل في دمياط سنة ١٧٩٦ حبال وصدر من قصب البردي . ويُظن ان صناعة القرطاس بدأت بالسقوط والتلاشي منذ سنة ٩٣٦/٣٢٥ على اثر انتشار الورق السمرقندي في خراسان والعراق والشام والمغرب واسبانية وايطالية وفرنسة . ومع ذلك لم ينقطع استعمال القرطاس في الشرق والغرب حتى النصف الاول من القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للميلاد وظلت دواوين البابوات تكتب فيه الى سنة ١٠٥٧ .

وقد سبق قول ابن البيطار ان القرطاس كان يحرق ويستعمل في الطب ومن فوائد رماده ايضاً ما ذكره ابو حاتم السجستاني قال : اذا اردت ان تضمّن كتاباً سرًّا فخذ لبناً حليباً فاكتب به في قرطاس فيذرّ المكتوب اليه رمادًا سخناً من رماد القرطاس فيظهر المكتوب وان كتبت به باء الزاج الابيض فاذا ذرّ المكتوب اليه عليه شيئاً من العفص ظهرت الكتابة وكذلك بالعكس[1] .

وقد اغفل ابن البيطار في وصفه عمل القرطاس ذكرَ صقاله وباي طريق واداة كان يتم . ويظهر انهم بلغوا فيه حد الاتقان والجودة كما يستفاد من قول جعفر بن حمدان المصري الكاتب وقد استوفى فيه وصف حسن لونه وطيه وصقاله :

في يديه من القراطيس كالز نة جادت براكف مدرار
كالملاء الرخيص كالثلج يغرا هند كالبيض كالمياه الجواري
كالسراب الرقراق في عنفوان الـ صيف نصف النهار في ايار
ما تبالي أجُلْتَ عينك فيه حين يُطوى ام في خصور العذاري
يسبح الخط فيه عوما فما يكـ بو بوعث فيه ولا بجبار[2]

ومن اغرب ما صنع من القرطاس قميص للقاضي عمران بن عبد الله سنة ٧٠٨/٨٩ وكان هجا عبدالله بن عبد الملك عامل مصر بابيات ثلاثة لمزله اياه

١) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٠٧ والوافي بالوفيات للصفدي خزانة باريس ٢٠٦٥ ص ١١٣

٢) ادب الكتاب ١٠٦-١٠٧

« فامر عبدالله ان يقطع له قميص من قراطيس ويكتب فيه عيوبه ويوقف للناس . فصُرف عبدالله قبل ان يوقف »[1].

طراز القراطيس (filigrane)

كانت صناعة القراطيس بمصر محصورة في ايدي العمال النصارى ككثير من الصناعات في الدولة الاموية وكانت عادتهم في ايام الروم البيزنطيين ان يرسموا في رؤوس الطوامير بسملة الصليب في الطراز وظلوا كذلك بعد الفتح الى شطر من خلافة عبد الملك بن مروان وهو اول من نبّه لها وانكرها واستبدل بها الآية القرآنية كما حكاه البلاذري في كلامه على الدنانير قال :

« كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من ارض مصر ويأتي العرب من قِبَل الروم الدنانير فكان عبدالملك اول من احدث الكتاب الذي يكتب في رؤوس الطوامير من « قل هو الله احد » وغيرها من ذكر الله فكتب اليه ملك الروم : انكم احدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه فان تركتموه والا اتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه قال فكبر ذلك في صدر عبدالملك فكره ان يدع سنّة حسنة سنّها فارسل الى خالد بن يزيد بن معاوية فقال له : يا ابا هاشم احدى بنات طبق واخبره الخبر فقال : افرخ روعك يا امير المؤمنين واجرِ دنانيرهم فلا يُتعامل بها واضرب للناس سككاً ولا تُعنِ هولاء الكفرة بما ذكروا في الدنانير فقال عبد الملك : فرّجتها عني فرج الله عنك وضرب الدنانير . »

قال عوانة بن الحكم : وكانت الاقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه الى الربوبية — تعالى الله علواً كبيراً — وتجعل الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم فلذلك كره ملك الروم ما كره واشتد عليه تعبير عبد الملك ما غيره.

وقال المدائني قال مسلمة بن محارب : اشار خالد بن يزيد على عبد الملك بتحريم دنانيرهم ومنع من التعامل بها وان يدخل بلاد الروم شيء من القراطيس فمكث حيناً لا يُحمل اليهم[2].

واسند البيهقي شرح القصة الى الخليفة هرون الرشيد وفيه بعض الخلاف

---

١) تاريخ مصر نولاتها للكندي ٢٢٨-٢٢٩

٢) فتوح البلدان طبعة ليدن ٤٦٠

لرواية البلاذري . واهم ما هناك ان صناع الطراز كانوا من الروم ولذلك كانت القراطيس تطرز بالرومية وكان طرازها « ابا وابنا وروحا قديشا » ولا ينفى ان هذا القول هو ترجمة الاصل الرومي الى السريانية نقله الرشيد احد البطارقة في بغداد قال : « ولم يزل الطراز كذلك صدر الاسلام كله يمضي على ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك فتنبه عليه وكان فطناً فبينا هو ذات يوم اذ مرّ به قرطاس فنظر الى طرازه فامر ان يترجم بالعربية ففعل ذلك وقال : ما اغلظ هذا في الدين والاسلام ان يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الاواني والثياب وهما يمثلان بمصر وغير ذلك ما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله واهله تخرج منه هذه القراطيس فتدور في الآفاق والبلاد وقد طُرزت بشرك شبّ عليها . فامر بالكتاب الى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وان يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد « وشهد الله انه لا إله الا هو » وهذا طراز القراطيس خاصة الى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغير وكتب الى عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيئاً منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل »[1] .

وظلت آية التوحيد ترسم على القراطيس البردية وتحمل على هذه الصورة الى بلاد الروم والاقطار النصرانية قبل انتشار صناعة الورق في اسبانية وايطالية وفرنسة . ولو درى عبد الملك ان آية القرآن سيُحَطّ فوقها من بعده باقلام البابوات ورجال الدين اعظم عقائد النصرانية واخبارها مدة تربي عشرة اضعاف على الحقبة المروانية التي كتبت فيها اقوال الخلفاء واوامرهم فوق طراز التصليب لمات قرير العين وقد ادرك ثأره مما عدّه غلطاً في الاسلام .

وفي الخزائن الاوربية اليوم بعض بقايا من القراطيس البردية المطرزة بآية التوحيد منها منشور البابا يوحنا الثامن كتب سنة ٨٧٦ محفوظ في دار الكتب بباريس علق عليه العالم بالمصريات شامبوليون فيجاك سنة ١٨٣٥ درساً بعنوان :

Charte Latine sur papyus d'Egypte

---

١) المحاسن والمساوئ طبعة القاهرة ٢ : ١٢٦-١٢٩

وفي طراز هذا المنشور اسم المشرف : سعيد بن عبد الرحمن (وكان حيا سنة ٨٣٨) .

وفي خزانة بريتيش موزيوم في لندرة مخطوط رقم Ar. 5000 يُرى في ورقته الاولى حليب في الطراز[1].

وما خلا آية التوحيد كان يطرز ايضاً على مدارج القرطاس اسم عامل مصر والمشرف على صناعة البردي وتاريخ عمله وعمله واحياناً اسم خليفة الوقت وولي عهده ووزيره وما اشبه ذلك من القيود الديوانيـــة باللغتين العربية والرومية ثم اقتصر فيما على القلم العربي وحده واختلفت ايضاً صور الكتابة بحسب اختلاف العمال والولايات ومنها في البرديات المكتشفة ضروب وانواع يطول تعدادها .

اقيسة القرطاس

لم نقف في كل ما طالعناه على نص صريح يذكر مقادير القرطاس واقيسته وقطعه قديماً خلا ان السيوطي في كلامه على خصائص مصر روى ان القرطاس «كان يعمل طوله ثلاثون ذراعاً واكثر في عرض شبر»[2] ويتبين من معاينة الصحائف القديمة ان اقيستها كانت تتباين بحسب الشظايا التي تتألف منها وربما بلغ طول الشظية الواحدة ٧٥ سنتيمتراً وعرضها ١/٢ ٤٤ يُلصق بعضها ببعض الصاقاً محكماً يكاد لا يبين وتؤخذ العشرون منها تقريباً في قياس ٣٠ ذراعاً او ١/٢ ١٤ متراً وتلف في مدارج مختومة كان يقال للسدس منها في الرومية (ταλλίωτον) اي طومار وهو اقل ما كان يُطلب ويباع منها .

وبين البرديات المحفوظة في مجموعة الارشيدوق رينياي رقاع كتب فيها بعد البسملة : « ادفع الى رسولي من القراطيس النقية كذا طوماراً » وبذيلها هذا التوقيع « الحسن بن سعيد يؤمن بالله ورسوله » بتاريخ اول المحرم سنة ١٩٦ (= ٢٣ سبتمبر ٨١١) .

وفي كتب اللغة ان الطومار هو الصحيفة . وأريد به في الاصطلاح مجرد

---

(١) *Bulletin Officiel de la Chambre Syndicale du Commerce des papiers de France* n° 210 Avril 1938 p. 6300

(٢) حسن المحاضرة ٢ : ١٩٤

الورق ولكن حيثما ورد في الكتابات التي سبقت ظهور الورق السمرقندي لا يُعنى به الا قطع السدس من قرطاس البردي وهو المعروف بالدرج والفرخة . وكان يكتب فيه بقلم خاص يقال له « قلم الطومار وهو قلم جليل قدر الكتاب مساحة عرضه باربع وعشرين شعرة من شعر البرذون وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم في الزمن المتقدم في ايام بني امية فمن بعدهم »[1] وله قلم آخر يسمى قلم مختصر الطومار .

قيل ان الوليد بن عبد الملك « هو اول من كتب في الطوامير وامر بان تعظم كتبه ويجوّل الخط الذي يكاتب به وكان يقول تكون كتبي والكتب الي خلاف الناس بعضهم الى بعض »[2] « فهو اول من جوّد القراطيس وجلّل الخطوط وفخّم المكاتبات وكتب لمروان بن محمد آخر الامويين عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور فاطال الكتب واطنب فيها حتى يقال انه كتب كتاباً عن الخليفة جاء وقر جمل واستمر ذلك في ما بعده »[3] .

ولا ندري عمن نقل القلقشندي هذا الخبر العجيب ومن الخوارق ان يبلغ كتاب خليفة حمل جمل ولا ريب انه كان مكتوباً بخط جليل موسّع فيه بين السطور حتى بلغ حجم الكتاب هذا المقدار الهائل الذي يغلب على ظننا الشك في صحته . واين هذا الاسراف في التبذير من تقتير عمر بن عبد العزيز وقد ذُكر في مناقبه « انه أُتي بطومار ليكتب فيه فامتنع وقال : فيه ضياع الورق وهو من بيت مال المسلمين »[4] قال عمرو بن ميمون : ما زلت الطف انا وعمر في امر الامة حتى قلت له : يا امير المؤمنين : ما شأن هذه الطوامير التي يكتب فيها بالقلم الجليل يُمدّ فيها وهي من بيت مال المسلمين ؟ فكتب في الآفاق ان لا يُكتبنّ في طومار بقلم جليل ولا يُمدنّ فيه . قال فكانت كتبه انما هي شبراً ونحوه »[5] .

---

١) صبح الاعشى ٣ : ٥٢
٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ٥٠
٣) صبح الاعشى ٦ : ٣٩١
٤) « « ٣ : ٥٢
٥) طبقات ابن سعد طبعة اوربة ٤ : ٣٦٥-٣٦٦

وكان الطومار يُجزأ الى اجزاء. اعظمها الثلثان واقلها السدس . ولكل منها اختصاص بحسب منزلة المكتوب اليه وفي كتاب القلم والدواة لمحمد بن عمر المدائني « ان الخلفاء لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها من عهد معاوية بن ابي سفيان وذلك انه كان يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار . والى الامراء من نصف . والى العمال والكتاب من ثلث . والى التجار واشباههم من ربع . والى الخطاب والمُسَاح من سدس . فهذه مقادير لقطع الورق في القديم وهي الثلثان والنصف والثلث والربع والسدس »[1] ومنها اتخذت فيما بعد مقادير الورق البغدادي الكامل .

وذكر الصولي مقادير القراطيس التي يكتب فيها فقال : « يكتب الامام في الثلثين من الطومار الى ملك الملوك وعماله ويكتب عماله اليه في مثل ذلك ويكاتبه وزيره في النصف في امور العامة الديوانية فاما الخاص الذي يكتبه بخطه او يكتب بين يديه ففي خمسين ويكاتبونه في مثل ذلك في الخاص والعام الا من كان منهم في ادنى الطبقات فانه لا يكاتب الا في النصف في الحالتين جميعاً وتتكاتب الاكفاء في الاثلاث والارباع وتتحيل المودة بينهم كل شيء احتملته من التسمح في ذلك . والاسداس للتوقيعات وقال بعض الكتاب :

انت لما ابتدأت تكتب في الأنصا فِ خفنا من قلة الإنصاف
وعلمنا ان شأنك لا يجمع بين الإنصاف والأنصاف[2]

وكانت اجزاء الطومار توصل ويلصق السابق منها باللاحق في الرسائل الطويلة والكتابات الديوانية وربما بلغ طولها ستين ذراعاً وفي تاريخ الصابي « احضره صاحب القرطاس ثلث قرطاس ووصل القول بما ملأ به الثلث واستدعى ابو علي (ابن مُقلة) ثلثاً آخر واستتم الامر فيه وفي ما اراد خطابه به في معانيه فكان ذرع الثلثين اللذين كتب فيهما نحو ستين ذراعا »[3] .

ويظهر ان إلصاق الوُصَل كان يوكل عادة الى الخدام والغلمان وكان لا بد

١) صبح الاعشى ٦ : ١٨٩ وديوان الانشاء خزانة باريس ٣٦٥٩ ص ١٧٧
٢) ادب الكتاب ١٦٨–١٦٩
٣) تاريخ الوزراء ٢٣٩

من بعض الحذق والدربة به لئلا يستبين وعُدَّ ذلك من فضائل بشر غلام كشاجم الشاعر المشهور ولما مات بشر قال في رثائه :

يطوي الطوامير بلا كلفة واللصق بالالصاق لا يستبين[1]

ظهور القراطيس

قال الصولي : كره الناس الظهور (اى الكتابة في ظهور القراطيس) وأمر بترك استعمالها في النُسَخ وانشائها فكيف في المكاتبة وقيل هي تذيع الاسرار بما في باطنها .. وتنقض من سرّ الدولة واعتذر آخر من كتابته في الظهر فقال:

ان كتابي لك في الظهر يخبر اني ظاهر الغفر[2]

وقال صفي الدين الحلي يعتذر عن الكتابة في ظهر قرطاس :

كتبت على ظهر اليك لانني رأيتك ظهري في جميع النوائب[3]

وفي كتاب بواقيت المواقيت للثعالبي :

انما يكتب في ظهر اذا اعوز بطن[4]

ولا يخفى ما في هذا البيت من التورية القذرة .

ومن مجون ابن المعتز وسقطات شعره جوابه على حبيب له في ظهر كتابه قال فيه :

وأجبتُ في ظهر الكتاب إذا انى ليلوط خطي في الكتاب بخطه[5]

ولهذا السبب الذي نقلناه كانت النسخ المحفوظة في الدواوين السلطانية كثيرة البياض خالية الظهور وتقدم قول الشافعي :« كنت اجيء الى الدواوين فأستوهب منها الظهور فاكتب فيها » وفي كتاب الاغاني « قال بخارق كانت الحال بين ابي العتاهية وبين ابرهيم الموصلي لطيفة فكان يبعثني اليه في الايام اتعرف خبره فاذا دخلت وجدت بين يديه ظهراً ودواة فيكتب اليّ ما يريد

١) ديوانه طبعة بيروت ١٨١
٢) ادب الكتاب ١٦٨–١٦٩
٣) ديوانه ٤١٦
٤) خزانة الاسكوريال رقم ٥٣١ : ٤٦
٥) ديوانه ١ : ٨٧

واكلمه»[1] ولما مات ابو الفرج الاصبهاني أخرجت مسودة كتابه الاغاني الى سوق الوارقين لتباع « فبيعت في النداء باربعة آلاف درهم وان إكثرها في ظهور وبخط التعليق »[2] وكان ابن سينا « يجمع بين يديه ظهوراً من القراطيس وكل حجة ينظر فيها يثبت مقدماتها القياسية ويكتبها في تلك الظهور »[3] . وفي كتاب الامتاع والمؤانسة ان ابا جعفر ملك سجستان خاطب ابا سعيد السيرافي في مئات من المسائل واجاب عليها ابو سعيد . قال لعلها تقع في الف وخمسمائة ورقة لان اكثرها في الظهور»[4] .

ومن اغرب ما كانت تصلح له الظهور وضع الناطف فيها لنقائها وبياضها « قال ابو العباس بن الفرات : كنت منذ دهر مجتازاً في بعض الطرقات فرأيت في دكان نطّاف ظهوراً مطّقة ليجعل فيها ما يبيعه من الناطف على الناس »[5] وهو ما يدل على ان الظهور كانت متوفرة جداً تتخذ في ما عدا الكتابة والتسويد للتغليف والصرّ في الحوانيت والاسواق .

ومن اجل ذلك كانت القراطيس احياناً تباع عند البقال . قال عمر بن ابي ربيعة لصاحبه وقد اراد ان يكتب لجارية عجيبة الحسن رآها تتهادى بين جواريها « اجنح بنا نأخذ قرطاساً . قال فمال الى بقال فاخذ منه قرطاساً وكتب اليها »[6] .

غلاء القراطيس واثمانها

كانت مصر كما سبق القول هي المنبت الوحيد للبردي ومعدن صناعته وتجارته الى كل صقع وقطر فظل القرطاس المصري فذاً منقطع القرين تتنازعه اسواق الشرق والغرب دهراً طويلاً الى حين ظهور الورق . فلا غرو اذا كان عزيز المنهل ممتنعاً على من يروم كفايته منه او التوسع في الانتفاع به

١) الاغاني ٣ : ١٤٠
٢) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ٦٤
٣) تتمة صوان الحكمة ٤٠
٤) ارشاد الاريب ٣ : ١٠٠
٥) نثوار المحاضرة للتنوخي مجلة المجمع العربي بدمشق ١٧ : ٤٦٠-٤٦١
٦) تاريخ ابن عساكر في الظاهرية ١٣ : ٣-١٢٢

وبقيت لذلك اثمانه مرتفعة في الغالب ولعلها لم تسقط قط الى ما دون القيراط لكل طومار اي ١/٢٤ من الدينار ولاسيما ما كان معروفاً منه بالجودة والاتقان وبلغت احياناً في اوائل القرن التاسع للميلاد ديناراً ونصف دينار لكل مدرج وانحطت قليلاً الى دينار وربع دينار . ومثل هذه الاسعار يجب ان تعدّ من الغلاء لانها كانت تعادل وقتئذ اجرة فدان او حانوت بمصر ولهذا السبب ولاشتداد الطلب على القرطاس والحاجة اليه ولاسيما في الدواوين السلطانية كانت الخلفاء تكثر الوصية بالقصد والاقلال في استعماله وكان عمر بن عبد العزيز اكثرهم توفيراً له فكان يناقش الكتّاب والعمال في عدد القراطيس ويأمرهم بجمع الخط وكراهة الاسراف فيها وروي عن عبد الله بن ابي بكر بن حزم « ان اباه كتب الى عمر بن عبد العزيز يسأله قراطيس فكتب اليه عمر : ان رقّق القلم وأوجز الكتاب فانه اسرع للفهم . وكتب الى عامل آخر كتب اليه يطلب منه قراطيس ويشكو قلتها عنده : ان رقّق قلمك وأقلل كلامك تكتفِ بما عندك من القراطيس »[1] وفي رواية ابن عبد الحكم ان ابا بكر بن محمد بن حزم والي المدينة كتب الى سليمان بن عبد الملك يستمد منه جانباً من القراطيس وكانت في عهد بني امية توزّع بمقادير محدودة على العمال والولاة فكان من اعوزه جانب منها يكتب الى الخليفة باستطلاقه من بيت القراطيس. وكان لها بدمشق بيت خاص وفيه وُضعَ الوليد بن عبد الملك حين ضُرب في حادثة مقتل عمرو بن سعيد الاشدق « وذلك ان ابرهيم بن عدي احتمله فادخله بيت القراطيس »[2] واتفق ان توفي سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز فارسل يقول الى ابن حزم « اما بعد فقد قرأت كتابك الى سليمان تذكر انه قد كان يُجري على من كان قبلك من امراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا فابتُليتُ بجوابك فيه فاذا جاءك كتابي هذا فأرقّ القلم واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة فانه لا حاجة للمسلمين في فضل اضر ببيت مالهم والسلام عليك »[3] .

١) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ٦٨–٦٩

٢) مروج الذهب للمسعودي بهامش نفح الطيب ٣ : ٥١٨

٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ٦٤

وليتبع ذكروا لنا عدة القراطيس التي كانت معينة لولاة المدينة وسائر مدن الحجاز والعراق ومصر والشام ومن هذا التوزيع والتخصيص تتبين عزة القراطيس وقتئذ وصعوبة منالها وغلاء قيمها ولاجل ذلك كانت الدواوين بحسر اذا خاطبها احد في امر له تتقاضاه ثمن ما يُكتب له فيه وتسميه كما في بعض البرديات المكتشفة «ثمن الصحف» وقد نهى عمر بن عبد العزيز عن مطالبة الناس بها رفقاً بهم وكتب الى عامله عبد الحميد بن عبد الرحمن «لا تأخذ في الخراج «ثمن الصحف» فكان اهل الخراج لا يؤخذون برزق عامل ولا ثمن صحف ولا قراطيس»[1]. وفي نظير ذلك كانت الدواوين العباسية في وزارة ابي الحسن بن الفرات وخلافة المقتدر توزع القرطاس والورق مجاناً لاصحاب الرقاع والقصص اي للمتظلمين وتؤثر ان يغرمها بيت المال. والوزير ابو الحسن ابن الفرات هو اول من تحملها من الوزراء وتبرع بها. قال الصابئ في كلامه على داره «وفي جانب الدار ادراج كثيرة لاصحاب الحوائج والمتظلمين حتى لا يلزم احد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك وانصاف قراطيس واثلاث»[2] واقتدى المقتدر بالله بالوزير ابن الفرات «فامر يُمنا الطولوني وكانت اليه الشرطة ببغداد الّا يكلف الناس ثمن الكاغد الذي تكتب فيه القصص وان يقوم به»[3].

وبقي القرطاس في الخلافة العباسية الى ايام الرشيد عزيزاً صعب المنال وجرى المنصور طبعاً على خطة عمر بن عبد العزيز في توفيره والتشدد في ايجاز الكتابة فيه. قال يوسف بن صبيح كاتب عبدالله بن علي بن محمد بن العباس وذكر استدعاء المنصور له يوماً: امرني بالجلوس ثم رمى اليّ بربع قرطاس وقال لي: اكتب وقارب بين الحروف وفرّج بين السطور ولا تسرف في القرطاس»[4] وكانت مع ذلك خزائنه ملأى بالقراطيس. ونظر يوماً الى ما اجتمع في خزائنه من كثرة القراطيس فدعا بصالح صاحب المعلى فقال له: اني امرت باخراج حاصل القراطيس في خزائننا فوجدته شيئاً كثيراً جداً فتول

١) كتاب الخراج لابي يوسف ١٠٢ و١٠٣
٢) تاريخ الوزراء للصابئ ١٩٥
٣) تاريخ الامم والملوك للطبري المطبعة الحسينية القاهرة ١٣: ٣٧
٤) كتاب الوزراء والكتّاب ١٦٩

بيعه وان لم تُعطَ بكل طومار الا دانقاً فان تحصيل ثمنه اصلح منه. قال صالح: وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم (اي ست دوانق) فانصرفت من حضرته على هذا فلما كان في الغد دعاني فدخلت عليه فقال لي: فكرت في كتبنا وانها قد جرت في القراطيس وليس يؤمن حادث بصر فتقطع القراطيس عنا بسببه فنحتاج ان نكتب في ما لم نعوّده عمّالنا فدع القراطيس استظهاراً على حالها»[1].

ويتحصل من رواية الشابشتي ان القراطيس انقطعت في ايام الواثق او قل وجودها لاسباب لم تنتهِ الينا فبلغ ثمن الطومار الواحد درهمين اي ضعف ما كان عليه في خلافة المنصور وكان الواثق قد هم بتقليد اسحق بن ابرهيم بن مصعب خراسان بعد وفاة عبدالله بن طاهر وامر ان يُطلق له خمسة آلاف درهم معونة واستشار في ذلك احمد بن ابي داود فقال له احمد: ههنا ما هو خير من ذلك قال: وما هو؟ قال: طومار بدرهمين تكتب فيه الى طاهر بن عبدالله ابن طاهر بالتعزية عن ابيه وبتجديد الولاية له وتربح ما تنفقه[2]».

وفي فتنة المستعين والمعتز(٢٤٩—٢٥٢) ضاقت الصحف والقراطيس بكتاب الدواوين فوقّع لهم محمد بن عبدالله بن طاهر: رقّقوا الاقلام واوجزوا الكلام فان القراطيس لا تُرام والسلام»[3].

ومن ابين الدلائل على قلة القراطيس في كل وقت انهم كانوا يغسلونها ويعيدون الكتابة عليها وقد تقدم من توقيع الحسن بن سعيد سنة ١٩٦/٨١١ طلب القراطيس «النقية» وفي بعض الرسائل الخاصة «اعذرني يا سيدي في القرطاس فلم يحضر نقي» وهو ما يفهم منه ان القراطيس كانت تغسل احياناً كالرقوق ويطرّس عليها اي يُخَطّ من جديد عليها لملئها في كل وقت وقلة الجاهز منها.

ومن الاسباب التي خفيت لاجلها علينا اثمان القراطيس في ازمانها المختلفة انهم كانوا يدخلونها في جملة نفقات الديوان مدمجة فيها وقد عدد الصابئ هذه

١) كتاب الوزراء والكتاب ١٤٩
٢) كتاب الديارات رقم ٨٣٢٤ خزانة برلين ورقة ٦
٣) خاص الخاص للثعالبي طبعة تونس ٧٨

النفقات في اول خلافة المعتضد بالله فقال :«ارزاق الكتاب واصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمؤذنين والاعوان وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد ... من جملة اربعة آلاف دينار وسبعمائة في الشهر »[1] وبلغت هذه النفقات في خلافة المقتدر بالله اي « جاري ديوان السواد وكتابه مع ثمن الكاغد والقراطيس نحو سبعة آلاف دينار في كل شهر »[2] وهي تكاد تكون ضعف نفقات المعتضد ولا ريب ان اثمان الصحف والقراطيس كانت اشد غلاء وقتئذ ولذلك كان ابو الحسن بن الفرات كلما تقلد الوزارة يوزع منها مجاناً كل ما يحتاج اليه اصحاب الحوائج وذكر غير واحد من المؤرخين ان سعر القراطيس كان يرتفع في وزاراته الثلاث لكثرة استعماله اياها[3].

وقام بعد ابي الحسن بن الفرات وزراء كانوا يخاتنون الدولة في ما يعين للدواوين من الارزاق والنفقات ويقتطعون ما يشاؤون من جاري الصحف والقراطيس فيها وقد نبه على ذلك ابن مسكويه فقال :«كانوا يصرفون الورق والقراطيس ثم يبيعونه فيحصل لهم منه مال »[4] . وفي سنة ٣١٩/٩٣١ اشار مؤنس على الكلوذاني الوزير بتقليد ابي الفتح الفضل بن جعفر ديوان السواد » فقلده الكلوذاني مكرهاً وانقطعت بتقليده مواد كانت تصل الى الكلوذاني وابي الفياض من ارزاق قوم لا يحضرون وتسبيبات باسماء قوم لم يخلقوا وما كان يسبب للغلمان والوكلاء في الدار والحاشية برسم الفقهاء والكتاب وما كان يستطلق لهم من الورق والقرطاس ويُبتاع ببعضه ما يحتاج اليه واشياء تشبه هذه »[5] .

ونظراً لعزة القراطيس وقيمتها كانوا يحرصون ايضاً على جميع ما كان وقاً مبتذلاً منها للانتفاع به في دور الطراز كما يؤخذ من حكاية الجاحظ في كتاب البخلاء قال :« كان ابو سعيد المدائني اماماً في البخل ... وكان ينهى خادمه

١) تاريخ الوزراء ٣٠-٣١
٢) تاريخ الوزراء ٣١
٣) صلة الطبري لعريب ٦١ وتاريخ بغداد لابن النجار باريس ٣١٣٦ ص ٣٥
٤) تجارب الامم لابن مسكويه ٥ : ٢٤٤
٥) تجارب الامم ٥ : ٢١٣-٢١٢

ان تخرج الكساحة من الدار وامرها ان تجمعها من دور السكان وتلقيها على كساحتهم فاذا كان الحين جلس وجاءت الخادم ومعها زنبيل فعزلت بين يديه من الكساحة زنبيلاً ثم فتشت واحداً واحداً فما كان من القراطيس فللطراز»[1] فهل يستدل من هنا ان الطراز لم يكن ينسج دائماً في الثوب بل ينقش احياناً في القراطيس التي تجعل عليه وتناط به .

ومن الملح المروية ان محمد بن بشير من شعراء اهل البصرة كان له في داره بستان ... فافلتت شاة لجار له يقال له منيع فاكلت البقل ومضغت الحوض ودخلت الى بيته فلم تجد فيه الا القراطيس فيها شعره واشياء من متاعاته فاكلتها وخرجت فعدا الى المسجد يشكو ما جرى وعاد فزرع البستان ونظم في هجو شاة منيع قصيدة طويلة قال في اولها :

لي بستان انيق زاهر ناضر المخضرة ريّان ترف

وفي ختامها في الدعاء على الشاة :

فاذا صاروا الى المأوى بها اعملوا الآجرّ فيها والخزف
ثم قالوا ذا جزاء للذي يأكل البستان منا والصحف
لا تلوموني فلو ابصرت ذا كله فيها اذن لم انتصف[2]

١٣ ــ الورق الصيني

قال ابن النديم انه كان يعمل من الحشيش وهو اكثر ارتفاع البلد[3] اي اكثر ما يستجلب منها وفي ارجح الاقوال ان اختراعه كان بين سنتي ٢٢٠–٢١٠ قبل المسيح وانتقلت صناعته من الصين الى سمرقند وخراسان بعد سنة ٧٥١/١٣٣ كما سيجيء. وكان نادراً طريفاً في زمان بني امية لعزة مناله وغلاء اسعاره وجُلب منه جانب في جملة الطرائف الصينية بعد فتوح البلدان وبقيت الرغبة فيه شديدة حتى ما بعد اصطناع الكاغد لجودته وتنافس الملوك والخاصة فيه . حكى ابن البواب المشهور بحسن الخط انه اراد ان يتم جزءاً ناقصاً

١) كتاب البخلاء ١٢١
٢) الاغاني ١٢ : ١٢٠–١٢٣
٣) الفهرست ٣٣

من قرآن بخط ابن مقلة في خزانة بهاء الدولة بن بويه في شيراز وكان قد اشترط لاقامه ان يعطى خلعة ومئة دينار قال: فدخلت الخزانة اقلب الكاغد العتيق وما يشابه كاغد المصحف وكان فيها من انواع الكاغد السمرقندي والصيني والعتيق كل طريف عجيب فاخذت من الكاغد ما وافقني وكتبت الجزء واذهبته وعتقت ذهبه وقلعت جزءا من جلد الاجزاء فجلدته به وجلدت الذي قلعت منه الجلد وعتقته ونسي بها الدولة المصحف ومضى على ذلك نحو سنة . . . واقمت مطالباً بالخلعة والدنانير وهو يماطلني ويعدني فلما كان يوماً قلت: يا مولانا في الخزانة بياض صيني وعتيق مقطوع وصحيح فتعطيني المقطوع كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير قال: مر خذه فمضيت واخذت جميع ما كان فيها من ذلك النوع فكتبت به سنين »[1].

ولا ريب انه كان للورق الصيني وقتئذٍ اثمان طائلة حتى ارتضى ابن البواب بالمقطوع منه العتيق دون الصحيح في نظير خلعة ملوكية ومئة دينار عيناً وقد تقدم في الكلام على الجاود انه كان منه جانب في خزانة ابن ابي بترة جماعة الكتب التي يزارها ابن النديم واثنى عليها . ومما كان يُكتب خصوصاً في الورق الصيني تذكيراً لها اقوال بعض المتصوفة والزنادقة ولما جدّ الوزير حامد ابن العباس في طلب اصحاب الحلاج « استتر ابن حماد وكبس دار له فاخذت منه دفاتر كثيرة وكذلك من منزل القنائي (محمد بن علي) فكانت مكتوبة في ورق صيني وبعضها مكتوب بماء الذهب مبطنة بالديباج والحرير مجلدة بالادم الجيدة »[2].

وكانت رايات الصبيان تعمل احياناً من الورق الصيني مع غلائه وندرته. قال الجاحظ في كلامه على مسيلمة المتنبي: « صنع راية من رايات الصبيان التي تعمل من الورق الصيني ومن الكاغد وتجعل لها الاذناب والاجنحة وتعلّق في صدورها الجلاجل وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الطلاب »[3]. وقوله:

---

١) تاريخ بغداد لابن النجار خزانة باريس ٢١٣١ ص ٧٠ ومعجم الادباء لياقوت ٥ : ٤٤٦-٤٤٨

٢) صلة الطبري لدوزي ٩

٣) كتاب الحيوان طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣ مجلد ٤ : ١٢٠-١٢١

و « من الكاغد » حكاية لما كان يعمل من هذه الرايات في زمانه لان الكاغد لم يكن معروفاً في زمان مسيلمة .

وحكى شهاب الدين العربي في مسالك الابصار ان بعض صناع الصين عمل ثياباً من الورق وباعها على انها من الكمخاوات الخطائية لا يشك فيها ثناك ثم اظهرهم على ذلك فعجبوا منه[1] . والكمخا نوع من الثياب لا يزال اليوم معروفاً وكانت العساكر من الامراء وغيرهم تلبسه في دولة المماليك[2] . ووصفه الثعالبي فقال « لاحل الصين الحرير المدفون الذي تخفى فيه الصور وتظهر ويقال له الكمخا وهو في شعر لابن الرومي »[3] ومن العجيب ان ينقاد الورق لمثل هذه الصور وهو ليس اقل غرائب صناعاتهم التي اشتهروا بها .

١٤ ــ الكاغد او الورق النباتي

الكاغِد والكاغَذ (بالدال والذال والكسر والفتح) لفظة فارسية وتقال غالباً في المغرب الكاغيط بالياء والطاء وتجمع على كواغيط . ولم نجد لاحد وصفاً شاملاً للنباتات التي كان يُصنَع منها الكاغد واشتهر منها القنب والحبال البالية التي تفتل منه وربما دخل بينها مشاقة الكتان ونفاية الاقطان واوحد شاهد عثرنا عليه من القطن قول ابي هلال العسكري في رسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم : « حكى ابو عبيدة فيما حكى عنه ابو حاتم انه اوصل الى احمد بن سعيد بن سهل الباهلي اربعة عشر الف مثل عربي بعضها في الجلود وبعضها في القطني وبعضها في القرطاس ولا يبعد انه كان يصنع في بعض البلاد من الحلفا والقش والاتبان وقشور الارز واشباهها . ولدينا نص صريح على الحلفاء شجر المرخ .

ولفظ الورق مستعار من ورق الشجر ولم يرد في الكلام القديم وكان يراد به قبلاً الرقوق من الادم وفي اللسان : الورق أدم رقاق واحدتها وُرقة ومنها

---

١) صبح الاعشى ج ٣ : ٤٧٨

٢) الخطط ج ٣ : ٣٥٢

٣) كتاب الامثال خزانة الجامعة الاميركية ببيروت ٤٢٧

٤) مجلة الزهراء سنة ١٩٣٠ ج ٥ ص ٢١٤

ورق المصحف »[1] . ونبه الزمخشري على هذا المعنى فقال : « وكُتب في الورق وهي جلود رقاق »[2] ومن شواهده كذلك قولهم « كان الشطرنج يُلعب على ورقة مربعة حمراء من أدَم »[3] وبهذا المعنى يجب ان يفسر قول الاخطل :

فكأنما هي من تقادم عهدها ورق نُنيرنَ من الكتاب بوالي[4]

ونظيره قول جرير :

لمن الديار بعاقل فالانعم كالوحي في ورق الزبور المعجم[5]

وقد تضاربت الآراء في تعيين الزمن الذي أحدث فيه الكاغد في الاسلام وحكى ابن النديم ما كان شائعاً في عهده فقال : « يقال انه حدث في ايام بني امية وقيل في الدولة العباسية وقيل انه قديم العمل وقيل ان صناعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني »[6] . وهذا القول الاخير هو الصحيح رواه الثعالبي نقلاً عن صاحب المسالك والممالك ولم نجده في احد الكتب المعروفة اليوم بهذا الاسم فقال : وقع من الصين الى سمرقند في سبي سباه زياد بن صالح في وقعة اطلخ من يصنع الكواغد ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت متجراً لاهل سمرقند فبهم خيرها والارتفاق بها في جميع الآفاق[7] ».

وهذه وقعة اطلخ حدثت سنة ٧٥١/١٣٣ وكان ملك الصين قد حصر ملك الشاش حتى نزل على حكمه « وبلغ الخبر ابا مسلم فوجّه الى حربهم زياد بن صالح فالتقوا على نهر طراز فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين الفاً واسروا نحو عشرين الفاً وهرب الباقون الى الصين »[7] . ووُجد بين هؤلاء الاسرى من كان يجيد صناعة الكاغد في الصين ففشا عمله عن يدهم في سمرقند.

وفي سنة ٧٩٥/١٧٩ انتدب الرشيد الفضل بن يحيى الى الديلم لقتال يحيى

---

١) لسان العرب ١٢ : ٣٥٤

٢) اساس البلاغة طبعة الدار ٢ : ٥٠٣

٣) كتاب بغداد لطيفور ٢٩٣ ومروج الذهب للمسعودي بهامش الكامل .

٤) ديوانه طبعة بيروت ١٥٦

٥) معجم ما استعجم للبكري ٦٠٦ .

٦) غار الفلوب في المضاف والمنسوب ٣٣١-٣٣٢

٧) الكامل لابن الاثير ٥ : ١٦٨

ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب[1] فمر بخراسان وشاهد ما يسمرقند من ارخية الورق فاشار باتخاذ مثلها في العراق بعد رجوعه في آخر السنة المذكورة كما يؤخذ من شهادة ابن خلدون في كلامه على الوراقة قال : ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فاشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت[2] » .

وروى القلقشندي قريباً من هذا فقال : اجمع رأي الصحابة على كتابة القرآن في الرق لطول بقائه او لأنه الموجود عندهم حينئذ وبقي الناس على ذلك الى ان ولي الرشيد الخلافة وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس فامر ان لا يكتب الناس الا في الكاغد لان الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فانه متى محي منه فسد وان كشط ظهر كشطه وانتشرت الكتابة في الورق الى سائر الاقطار وتعاطاها من قرب وبعد واستمر الناس على ذلك الى الآن »[3] .

وانما تأصلت صناعة الكاغد في سمرقند لكثرة المياه فيها ووفرة القنب والخيال وهي قوام الورق ومادته ومن سمرقند دخلت مدن خراسان وبغداد . وزعم الاصطخري ان الكاغد في القرن الثالث كان يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط[4] . وتبعه السمعاني فقال : «لا يعمل في المشرق الا في سمرقند »[5] وقد سبق نسبة احداث الورق في بغداد وشيوعه في الدواوين وبين الناس الى الفضل ابن يحيى والرشيد ولا حاجة الى التنبيه على تعدد الانهار في بغداد وكثرة الكتاب والحساب والعلماء فيها والورق توتهم اليومي فيبعد جداً ان لا تكون صناعته انتشرت في مدينتهم وهي حاضرة الخلافة وانما خصت سمرقند بأجود انواعه فقط

١) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ٢٣٢
٢) مقدمة ابن خلدون ٣٥٢
٣) صبح الاعشى ٢ : ٤٧٥–٤٧٦
٤) مسالك الممالك ٢٨٨
٥) الانساب للسمعاني ٤٧٢

واشتهرت بأول ما صنع منها لانها كما قال النويري « احسن وانعم وارفق وارق »[1] .

١٥ ـ صفة عمل الكاغد قديماً

قل جداً من تنبه لوصف طريقة صنع الكاغد وعلاجه في خراسان والعراق ومصر والشام منذ القرن الثاني للهجرة وغاية ما وقفنا عليه من الاشارة اليها في المخطوطات العربية في الغرب ثلاثة اسطر في كتاب في علم المصطلح الشريف في خزانة باريس غفل من اسم مؤلفه وعنوانه الصحيح ويُرجح انه من القرن التاسع للهجرة قيل فيه :

« اصل الورق من نبات القنب اقصره يطول على القصب الفارسي ويسمى الخندريس وبزره الشذانق (الشهدانق) وينبت ببلاد الشرق وبلاد الفرنجة فيكسر ذلك النبات ويدق ويلف جالاً جافية تعمل في المراكب الكبار الى ان تذهب قوتها فتباع وتجلب الى معامل الورق وتصنع اوراقاً والجيد منه بحسب رطوبة الارض المستعملة فيها والزمن واعطائه حقه في التخمير ونقاء غسله وصفاء الماء وحسن النشا وجودة الصقل بالزجاج بوجهيه واحسنه ما صنع في فصل الربيع »[2] .

واوحد ما ورد في تعريف عمل الكاغد بالتفصيل الباب الآتي من كتاب عمدة الكتاب وعدة ذوي الالباب الذي ألف للامير المعز بن باديس ننقله بلفظه من نسخة للاستاذ طنجي اوقفنا عليها الاستاذ مصطفى المهندس رئيس الفهارس العربية في دار الكتب المصرية الملكية وروايتها اتم واصح الروايات الواردة في نسخ الدار قال :

---

١) نهاية الارب ١ : ٣٦٧

٢) خزانة باريس رقم ٦٦٣٩ .

الباب الحادي عشر

في عمل الكاغد والاوراق وسقيها

« تأخذ الحبل القنب الجيد الشامي فتنقض فتله وتبلّه وتسرّحه بالمشط حتى يلين وتأخذ ماء الجير الابيض العال فتنقعه فيه ليلة الى الصباح ثم تتركه بيدك وتبسطه في الشمس حتى يجف نهاراً كاملاً ثم تعاوده الى ماء الجير غير الماء الاول ليلة الى الصباح ثم تتركه بيدك كفركك الاول وتبسطه في الشمس ثلاثة ايام او اكثر من ذلك فان بدلت ماء الجير كل يوم كان اجود فاذا تناهى ياضه اقرضّه بالمقراض صغاراً ثم انقعه في ماء عذب سبعة ايام ايضاً تبدل له الماء كل يوم فاذا ذهب منه الجير دقّه في جرن دقّاً ناعماً وهو ندي طري فاذا لم يبقَ فيه شيء من اليبس والعقد تأخذ ماء آخر في اناء نظيف فتحلله حتى يصير مثل الحرير ثم تعمد الى قوالب على قدر ما تريد تكون معمولة من السّار[1] تكون على شكل السل في النسيج عرضها وطولها على ما يجب من تقطيع الورق وتكون مفتوحة الحيطان ثم تعمد الى ذلك الحبل القنب المعمول فتضربه ضرباً شديداً حتى يختلط في قصرية كبيرة وتنط ذلك القالب في الماء وتحركه وتسوّيه بيدك على وجه فلا يكون موضع ثخيناً وموضع رقيقاً فاذا احكمته فأنِمْه على قالبه منصوباً حتى يأتي على ما تريد ثم تقلب اعلى القالب على لوح وتلصقه على حائط نظيف ملّس وتتركه حتى يجف ويسقط ثم خذ الدقيق الناعم الحواري والنشا المصفّيين فنرس الدقيق والنشا في الماء البارد حتى لا يبقى فيه شيء مختلف ثم تغلي ماء حتى يفور فاذا فار صبّه على ذلك الدقيق والنشا وحرّكها حتى يمتزجا ثم اصبر حتى يسكن ويبرق ثم اعمد الى ذلك الورق واطلِ يدك من وجه واحدٍ واقشره على قصبة فارسية فاذا جفّ اطل وجهه الآخر كالاول وجفّفه ثم ردّه على لوح ورش عليه الماء رقيقاً وجهاً بعد وجه وانت تجففه فاذا اعجبك بعد ذلك جففه تصقله .

صفة سقي الكاغد

« وهو المسمى في مصطلح الناس الآن « الملاج » تأخذ الارز تطبخه في طنجير بجلي من الصدا بماء عذب صاف حتى يخرج نشاه كاملاً تصفّيه وتدلّي الورق في ذلك النشا المصفى وتنثره على القصب الفارسي حتى يجفّ تصقله ويكون ذلك الماء المغلي فيه الارز لا كثيراً فيصير ماشّاً ولا قليلاً فيصير كثيفاً يتجعد على الورق ويتقشر بل يكون في القصد . ومن الناس من يطبخ الزرادة وهي نخالة الحنطة الناعمة التي جا اثر الدقيق . واما النخالة القشر فلا حاجة فيها فاذا طبخ الزرادة المذكورة وخرجت خاصيتها كما تقدم دلّى فيها الورق كما تقدم ومنهم من يثقع الكثير حتى يصير لها قوام ويسقي جا الورق» .

---

١) السّار نوع من القصب كانت تصنع منه السلال كما في تكملة المعجمات العربية لدوزي .

صفة تعتيق الكاغد

« يؤخذ طنجير نحاس يصب فيه نشا نقي جيد ويغلى حتى ينقص من الماء مقدار قيراطين فاكثر وتجعل فيه يسيرًا من الزعفران بقدر ما تحتاج اليه من تلوينه ويصب في طبق واسع ويمسس فيه الورق مسًا رقيقًا كيلا يتقطع ويشر على قصب فارسي[1] مفسح عن بعضه لئلا تلتزق اطراف الورق على بعضها فتذوب ويكون نشره في الظل ويحفظ عليه من النبار والشمس فانها يفسدانه وكلما جف يسيرًا تقلبه على القصب لئلا يلتزق فيه فاذا جف اصفله[2] فقد انتهى ».

صفة تعتيق آخر

« يؤخذ التبن القديم الذي تأكله البهائم ثم ينقع في الماء ثلاثة ايام او اكثر من ذلك ويغلى حتى يذهب نصفه ويطرح فيه النشا على النيار المذكور في الصفة الاولى فانه يتقن ويكون غاية ».

وكان تعتيق الورق حيلة يُلجأ اليها لايهام ان الكتابة الواردة فيه قديمة كقِدَم الكاغد وممن عمل بها الرئيس ابو علي بن سينا وهو يومئذ وزير لعلاء الدولة وجرى فصل من اللغة فتكلم فيه ابن سينا فقال له ابو منصور بن الجبان النحوي : « انت منطقي ما نعارضك وكلامك في لغة العرب ما نرضاه فسكت ابو علي خجلًا وبعد انفصاله من المجلس نظر في اللغة وتبحّر فيها وعمل رسائل اودعها نوعًا متوفرًا من اللغة وعتق ورقها وسأل علاء الدولة سؤال ابن الجبان عما تضمنه من الغريب فسأله فعلم بعضه وانكر بعضًا فقال ابو علي الكلمة الفلانية معناها كذا وهي مذكورة في الكتاب الفلاني وشرح جميعها واحال على الاصول فخجل ابو منصور بن الجبان وفطن لما فعله ابن سينا في تصنيف كتاب في اللغة واعتذر اليه اعتذارًا طويلًا[3]

ولما ارادوا امتحان ابي العلاء صاعد البغدادي في حضرة المنصور بن ابي عامر الحاجب المشهور في قرطبة كلفوا المنصور ان يأمر بتصغير كاغد ابيض وتبييره بهجته ليدل على قدم المخطوط الذي سألوه عن محتوياته[4]

١) في نسخة اخرى « يُنشر على خيط قنب رقيق في الظل ».
٢) في بعض النسخ « يُصقل بصاقل الزجاج ».
٣) انباه الرواة على انباه النحاة لكمال الدين القفطي (رقم ٢٥٧٩ تاريخ) في دار الكتب المصرية المجلد ٢ الجزء ٤ ص ٤٥٢ – ٤٥٣
٤) الذخيرة لابن بسام القسم الرابع المجلد الاول ٨

وكان بعض المعوزين اذا نفد ما بايديهم يعمدون الى هذه الحيلة في طلب الرزق والقوت وممن عُرف بها عبد الرحيم بن محمد بن يوسف السهوري الخطيب « كان بالقاهرة تحصل له ضائقة وتلجئه الحاجة والفاقة فيأخذ ورقاً ويكتب فيه قلفطيريات[1] ويعتقه ويبيعه بثمن له صورة »[2]

وبقي عمل الكاغد معروفاً الى القرن الحادي عشر للهجرة وربما انفرد بصنعه بعض كتبة المصاحف ليكونوا على ثقة من طهارته وممن مهر فيه عبد الرحمن الحولاني الحيرازي المتوفى سنة ١٠٠٣/١٥٩٤ « بلغ به حرصه الشديد على اجلال القرآن انه اصطنع له بيده كاغداً وحبراً ممتازين ليكون طاهراً بالاجماع »[3]

وكذلك كانت تفعل الزنادقة في الخلافة العباسية ويحتكرون الورق النقي الابيض لنسخ كتبهم ويستجيدون لها اجمل الخطوط وينفقون على تزيينها ما شاؤوا من الذهب والفضة . وفي سنة ٣١١/٩٢٤ في نصف رمضان « أحرق على باب العامة صورة مانى واربعة اعدال من كتب الزنادقة فسقط منها ذهب وفضة كان على المصاحف له قدر »[4] . وروى الجاحظ ان ابرهيم بن السندي « قال مرة : وددت ان الزنادقة لم يكونوا حرصى على المقالات بالورق النقي الابيض وعلى تحلل اغبر الاسود المشرق البراق وعلى استجادة الخط والارغاب لمن يخط فاني لم ار كورق كتبهم ورقاً ولا كالخطوط التي فيها خطا واذا غرمتُ مالاً عظيماً مع حبي للمال وبغضي الغرم كان سخاء النفس بالانفاق على الكتب دليلاً على تعظيم العلم وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سكر الآفات قال الجاحظ : قلت لابرهيم ان انفاق الزنادقة على تحصيل الكتب كإنفاق النصارى على البيع »[5]

ويؤخذ من كلام ابن الحاج على حسبة الوراقين انهم كانوا في ما عدا القتب والجبال البالية يتخذون الكاغد من الاوراق المنبوذة المطّرحة او المكتوبة

---

١) القلفطيريات لفظة رومية يراد بها نوع من كتابة الطلاسم .
٢) اعيان العصر للصفدي بدار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ ج ٣ : ٢٩٨
٣) خلاصة الاثر للمحبي ٢ : ٢٦٠
٤) المنتظم للجوزي ٦ : ١٧٤
٥) كتاب الحيوان طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣ ج ١ : ٢٨

المستعملة باعادة حلها وعجنها وهو قوله في وصية الوراق « ان لا يعمل شيئاً من الورق المكتوب الا بعد ان يعرف ما فيه لانه قد يكون فيه شيء له حرمة شرعية . . لان الصناع يدوسون ذلك بارجلهم » ووصف جانباً من احوالهم وهيئتهم في داخل المعمل فمنع ان يشتري احد الورق من الوراقة «في وقت يعلم انه يكشف فيه على عورات من يعمل فيها من الصناع اذ ان اكثرهم يجعلون في اوساطهم خرقة تصف العورة لصغرها وانحصارها على العورة وابتلالها بالماء والفخذ عن آخره مكشوف »[1] .

وحذّر عامل الورق وبائعه « من الغش في ما هو يحاوله . مثاله ان يعطي الدست الذي يساوي ثلاثة دراهم فيبيعه على انه من الدست الذي يساوي اربعة لان الورق في ذلك يختلف ثمنه بسبب صفته فقد يكون زائداً في البياض وفي الصقال ويكون مما عُمل في الصيف وآخر عكسه اعني فيه سمرة ونقص في الصقال او البياضة وعُمل في الشتا. وما بين ذلك . . .

وحذر البائع ايضاً ان يخلط الورق الخفيف بالورق الجيد الذي يصلح للنسخ لان ذلك تدليس على المشتري لان الخفيف لا يحمل الكشط لخفته . . . »[1]

ومن الورق ما كان يُصقل وجه منه واحد ويترك الاخر دون صقال كالمنصوري بخلاف الورق العادة « فان فيه ما يصقل وجهاه ويسمى في عرف الوراقين « المصلوح »[2] . ولم يذكر احد من اين أُخذ هذا اللفظ .

وكان طلا. الكاغد من الصناعات التي عرف بها النسا. وربما عوّد اولادهن على حب الوراقة وفي سنة ٥٤٨/١١٥٣ توفي احمد بن ابي غالب ابو العباس المعروف بابن الطلّاية ولد بعد الستين والاربعمائة[3] (١٠٦٧—١٠٦٨ م) .

وقد فاتنا كثير من اوصاف الوراقة وما استُحدث فيها من الالفاظ والمصطلحات واوحد ما مرّ بنا منها لفظ « المشاجن » في كلام البيروني قال: هي الحجارة المشدودة على اعمدة الجرازات المنصوبة على المـا. الجاري للدق

١) كتاب المدخل ٤ : ٨١-٨٨
٢) صبح الاعشى ٢ : ٤٧٦-٤٧٧
٣) المنتظم للجوزي ١ : ١٥٢

كالحال لسمرقند في دق القنب الكراعد[1] ولم نجد هذه اللفظة في شيء من كتب اللغة .

١٦ ـ عزة الكاغد وغلاؤه

اكثر ما كان يطلب الكاغد لكتابة الحديث والعلوم الدينية فضلاً عن حاجة العلماء والادباء والشعراء وارباب الدواوين السلطانية اليه . ومع تعدد مصانعه في خراسان والعراق ومصر والشام كان علم الحديث يفني معظم ما يرد منه الى الاسواق ولذلك كانت اسعاره دائماً فوق متناول العامة والفقراء . قال بقي بن مخلد الاندلسي وكانت وفاته سنة ٢٧٦/٨٨٩ « اني لاعرف رجلا باع سراويله غير مرة في شراء كاغد حتى يسوق الله عليه من حيث يخلفها »[2] وكثيراً ما ضاق ذرع المصنفين بتحصيل ورق لتبييض مصنفاتهم . ومن الكتب التي حُرمها العلم اعجز مؤلفها عن تبييض مسودته تاريخ مصر لابي محمد عبدالله ابن خلف بن رافع المسكي . قال ياقوت : « جمع تاريخاً لمصر أجاد فيه وهو قد عجز عن مسوداته ان يبيضها لفقره فبيع على العطارين لصرّ الحوائج »[3] . وكان المحدثون يتهافتون دائماً على احتكاره وذكر عن احمد بن قاج بن عبدالله الجلحي الوراق « انه ورث ثلاثمائة دينار او سبعمائة فاشترى بجميعها كاغدا في صفقة واحدة ومكث سنين كثيرة يكتب فيه الحديث . »[4] وحكى ابن شاهين الواعظ انه كتب باربعمائة رطل حبراً وقال حسبتُ ما اشتريت به الحبر الى هذا الوقت (سنة ٣٨٠ — ٣٨٥ = ٩٩٠ — ٩٩٥) فكان سبعمائة درهم . قال الداودي : وكنا نشتري الحبر اربعة ارطال بدرهم . »[5] ولا يعلم الا الله ما سوّد الحديث من الكاغد لمحدث واحد . وفي زعم كتاب طبقات الحنابلة لابن ابي يعلى الفراء ان احمد بن حنبل كان يحفظ سبعمائة الف حديث[6] قيدها بخطه

١) الجاهر في معرفة الجواهر ٢٣٤
٢) ارشاد الاريب لياقوت ٢ : ٢٧
٣) معجم البلدان ٤ : ٥٢١
٤) تاريخ بغداد للخطيب ٤ : ٢٥٥
٥) » » » ١١ : ٣٦٧
٦) طبقات الحنابلة طبعة دمشق سنة ١٣٥٠ ص ١٤٤

قبل ان يستظهرها في ذاكرته . وفي تاريخ ابن عساكر «سئل يحيى بن معين وهو من كبار المحدثين «كم كتبت من الحديث يا ابا زكريا . قال : كتبت بيدي هذه ستمائة الف حديث»[1] فما الظن بعد ذلك بما دونه غيره من آلاف آلاف الاحاديث وبما افتتهُ هذه الارقام الهائلة من امتان الكاغد وقد احترق مرة سوق باب الطاق في بغداد فالتهمت النار لابن الخفاف الوراق وحده الفا وثمانين منا كلها من سماعه[2] ولذلك دفع حب الاقتصاد والتوفير رجال الحديث الى اتخاذ خط دقيق مقرمط في كتابة رواياتهم وموضوعاتهم ولم يستنكف بعض الخلفاء من التمرن عليه قال الخطيب البغدادي : وقد علي بن حرب الطائي على المعتز بسرّ من رأى في سنة اربع وخمسين ومائتين(٨٦٨ م) فكتب المعتز عنه بخطه ودقق الكتاب فقال عليّ : اخذت يا امير المؤمنين في شؤم اصحاب الحديث فضحك المعتز»[3] .

فلا عجب بعد ذلك ان كان الكاغد دائمًا نادرًا عزيزًا ثمينًا يُخان فيه ويُسرق . حكى كمال الدين القفطي ان بعض متجلي صناعة التصنيف رغب في جمع اخبار النحاة وسأله إعانته قال : فاجبته الى ملتمسه ونبهته على الترتيب والتبويب وأعنته بغاية امكاني فلما فرغ منه او كاد طلب ورقًا ليبيض منه نسخته لاجلي فمكنته من ذلك ثم بلغني انه باع الورق وتعلل عن النسخ»[4] .

ومن اظهر الدلائل على ندرة الكاغد وارتفاع اسعاره ما رواه السخاوي في كلامه على محمد بن سعيد الدين جمال الدين ملك المسلمين من الحبشة قال : عنده امير يقال له حرب جوشن كان نصرانيًا لا يطاق في القتال فاسلم وحسن اسلامه فهزم الكفار من الحبشة مرارًا واتكى فيهم فغنم غنائم عظيمة بحيث بيعت الراس من الرقيق بربطة ورق[5]» .

ومن الطف الابيات التي اعتذر فيها عن البخل الكاغد ما رواه ابو بكر

١) الخزانة الظاهرية بدمشق ١٨ : ٩٢

٢) تاريخ بغداد للخطيب ٢ : ٢٥٠

٣) تاريخ بغداد ١١ : ٤١٩

٤) انباه الرواة على انباه النحاة (رقم ٢٥٧٩ تاريخ) في دار الكتب المصرية ١ : ٣

٥) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي ٧ : ١٥٢

ابن شاذان قال : سألت ابا الطيب محمد بن الحسين بن حميد بن الربيع ان يملي عليّ شيئاً فأبى ثم سألته فاجاب فقلت له : اعطني ورقة فقال : والورق من عندي ؟ اكتب وانشدني هذه الابيات :

ربّ ما اقبح عندي عاشقاً ... متهاماً يتفقّا سننا
قلت من ذاك ؟ انا ؟ فاستضحكت ... ثم قالت : من تراه ؟ فانا ؟
قلت زوريني فقالت عجبا ... انا والله اذن قاري مني
اذ يصلي وعليه زيتهم ... انت عواني وآتيك انا ؟ (١)

ولا يخفى لطف هذه الابيات وحسن موقعها .

ولدينا ايضاً مرثية طويلة غاية في الظرف يستدل منها على شدة غلاء الكاغد وندرته ندب بها ابو الشبل البرجي ثُلث درج شرق منه وعدّد محاسنه في حكاية اخبر بها الحسن بن علي الشياني قال :

« دخلت على ابي الشبل يوماً فوجدت تحت مخدته ثُلث قرطاس فسرقته منه ولم يعلم بي فلما كان بعد ايام جاءني فانشدني لنفسه :

فكّر تعتري وحزن طويل ... وسقيم اعيى عليه النحول
ليس يبكي رسماً ولا طللاً ... درسَ كما تُندَب الربى والطلول
انما حزنه على ثلث كا ... نَ لحاجاته فقالته غول
كان للسر والامانة والكتـ ... ـمان ان باح بالحديث الرسول
كان مثل الوكيل في كل سوق ... ان ثلكنا او ملّ يوماً وكيل
كان لمهما ان تراكم في الصو ... رِ فلم يُشفَ من عليل غليل
لم يكن يتقي الحجاب من الحجّا ... بِ ان قيل ليس فيها دخول
ان شكا حاجباً تشدّد في الا ... ذنِ فللحاجب الشقي العويل
يرفع الخبر عنه والورق والكسوة عنه فهو المطرود وهو الذليل
كان يُثنى في جيب كل فتاة ... دونها خندق وسور طويل
يقف الناس وهو اول من ... تُدخله القصر غادة عطبول
فاذا ابرزته باح به في القصـ ... ـر ملك وغيره مملول
وله الحب والكرامة من ... بات صبّاً واللثم والتقبيل
ليس كالكاتب الذي بابي الخطـ ... ـات يكني قد شابه التطفيل

(١) تاريخ بغداد ٢ : ٣٣٦-٣٣٨

ذا كريم بدعى وذا طفيلـــي وهذا وذا جميعا ذليل
ذاك بالنشر واجاعة يلقى ولهذا الحجاب والتكيل
لم يعد قوده الزمان على الالسن منه عطف ولا تنويل
كان مع ذا عدل الشهادة مقبولا اذا عزّ شاهدًا تعديل
واذا ما النوى الهوى بالاليفين قام يرعَ فاصلًا موصول
فهو الحاكم الذي قوله بين الاليفين جائز مقبول
فلئن شتت الزمان به شمل دواني وحان منه رحيل
لقديمًا ما شتت البين والالـــفة من صاحب فصبر جميل
لا تلمني على البكاء عليه ان فقد الخليل خطب جليل

قال : فرددته عليه وكان اتهم به ابا الخطاب الذي هجاه في هذه القصيدة فقال لي : ويلك نجيت (كذا) ووقع ابو الخطاب بلا ذنب ولو عرفت انك صاحبها لكان هذا لك ولكنك قد سلمت[1] » .

١٧ ــ الورق السمرقندي

ذكرنا فيما تقدم كيف انتقل عمل الورق الى سمرقند على يد صناع اسرى من الصين بعد وقعة الطلح سنة ١٣٣ / ٧٥١ وكان نظير الصيني في الحسن والنعومة لا يقاربه شيء مما عمل من جنسه في سائر بلاد الشرق ولذلك قال ابن حوقل : لهم الكاغد بما وراء النهر الذي لا نظير له في الجودة والكثرة[2] . وقال البشاري المقدسي : لا نظير لكاغد سمرقند[3] . وظل يُعدّ في كل وقت من افضل انواع الورق في الاسلام واغلاها قيمة وعلّل التوزي هذا الفضل بقوله : من خصائص سمرقند الكواغد التي عطلت قراطيس مصر والجاود التي كان الاوائل يكتبون عليها لانها احسن وانعم وارفق وارق[4] . ولذلك كان يُؤثَر الكتابة فيه جلّة الوزراء والعلماء .

وكان الوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات لا يُستعمل له الا الورق السمرقندي

١) الاغاني ١٣ : ٢٩ــ٣٠
٢) المسالك والممالك ٣٣٢
٣) احسن التقاسيم ٣٢٦
٤) نهاية الارب ١ : ٢٦٧

ويحمل اليه في مصر في كل سنة » وكان في خزانته عدة من الوراقين. فاستغنى بعضهم فامر بان يُحاسب ويصرف فكمل عليه مئة دينار فعاد الى الوراقة وترك ما كان عزم عليه من الاستغنا.. قال محمد بن طاهر المقدسي : سمعت ابا اسحاق ابرهيم بن سعيد الجبال يقول: خرّج ابو النضر السجزي الحافظ على اكثر من مئة شيخ لم يبق منهم غيري وكان قد خرّج له عشرين جزءا في وقت الطلب وكتبها في كاغد عتيق فسألت الجبال عن الكاغد فقال هذا من الكاغد الذي كان يحمل للوزير من سمرقند وقمت الي من كتبه قطعة فكنت اذا رأيت فيها ورقة بيضاء قطعتها الى ان اجتمع هذا فكتبت فيه هذه الفوائد »[1].

ولاجل هذه الشهرة التي عرف بها الورق السمرقندي في النفاسة والاتقان فضّله بعض المحدثين لكتابة الحديث كما كانوا يختارون لها قبلًا الرق اجلالًا وتكريمًا . قال ابو القاسم محمود بن علي بن نصر النسفي بسمرقند وذكر ابا نصر الكاساني: قدم بلخ علينا وكان يقول: كتبت من الكاغد مئتين وخمسين منًا فيه حديث رسول الله[2] (صلعم) يعني بالكاغد الورق السمرقندي.

وقد فاتتنا معرفة الانواع التي كانت تصنع منه ولم يُذكر لنا منها الا المنصوري نسبة الى ابي الفضل منصور بن عبد الرحيم بن ليث بن مجير الكاغدي من اهل سمرقند توفي سنة ٣٢٣/٩٣٥ بسمرقند . قال السمعاني واليه ينسب الكاغد المنصوري المشهور ببلاد خراسان وعدّ من كان ينسب نظيره الى عمل الكاغد وبيعه وقال : المشهور بهذه النسبة ابو تربة سعيد بن هاشم الكاغدي السمرقندي مات سنة ٣٤٩ (٩٦٠ م) وصاحبنا ابو علي الحسن بن ناصر الكاغدي المعروف بالدهقان اليه ينسب الكاغد الحسن الذي لم يلحقه من سبقه في جودة الصنعة ونقاء الآلة وبياضها . . . ومن القدماء ابو عمرو محمد بن خشنام بن سعد الكاغدي من اهل نيسابور . . . وابو احمد حامد بن محمد بن احمد بن جعفر الصوفي الكاغدي من اهل نيسابور . . . توفي سنة ٣٤٦[3] (٩٥٧ م).

ويستدل من بعض الاخبار ان الورق المنصوري كان متوفرًا في بغداد في

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٢ : ٤١٣

٢) تاريخ بغداد لابي ابرهيم بن الفتح البنداري ٦١٥٢ خزانة باريس ٨

٣) كتاب الانساب ٤٧٢

القرن الثالث للهجرة ولعله كان يصنع فيها كما صنع فيما بعد في مصر وذلك لكثرة ما كان يوزّع منه على الناس في وزارة ابن الفرات «قيل انه لما خُلع على ابي الحسن بن الفرات خلع الوزارة زاد في ذلك اليوم في ثمن الشمع قيراط في كل منّ لكثرة استعماله لها لانه كان من رسمه ان لا يخرج احد من داره في وقت عشاء الا ومعه شمعة مَنَوِيّة ودرج منصوري»[1].

قال ابو اسحق الصابئ يصف كتابا كتبه في ايام الحداثة بين يدي الوزير ابي محمد المهلبي: استدعيت دواتي ودرجاً منصوريا وكتبت كتاباً اقتضبته بغير روية ولا نسخة»[2]. وكان الورق المنصوري معروفاً ايضاً في الاندلس اشار اليه المقرّي في نفح الطيب[3].

وقد تقدم ان الحسن بن ناصر المعروف بالدهقان كان يصطنع ورقاً لا يعادله ورق آخر في الجودة والنقاء. وقد اعيانا البحث لنجد ذكر ورق منسوب اليه في ما مرّ بنا من الاخبار والآثار فلم نعثر على شاهد واحد فكيف طارت شهرته بعمل افخر الورق في سمرقند دون ان يعرف بالدهقاني كما اشتهر سائر انواع الورق باسماء اصحابها كما سيجيء.

وهنالك ورق آخر ذكره الامام ناصر الدين في الملتقط ودعاه الدرّي وقال انه كان مشهوراً بين علماء سمرقند. ولم نجد اشارة اليه اخرى في مطالعاتنا وابحاثنا عن الورق ويظهر انه كان منه نوع جيد وآخر لا يصلح للكتابة[4].

(للمقال صلة)

---

١) تاريخ الوزراء ٦٣

٢) ارشاد الاريب ١ : ٢٤٣

٣) طبعة دوزي ١ : ٦٢٤

٤) نصاب الاحتساب للشيخ عمر بن محمد بن عوض الشامي في مكتبة دار الآثار بالقدس ٨